مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصبحه وسلم، أما بعد

منذ مدة طويلة ونفسى تلحُّ عَلَىَّ فى أن أكتب سيرتى الذاتية، كيف لا، وقد عشت فترة ليست قصيرة، عشتها بأحداثها الجسام وآمالها وآلامها وإحباطاتها وهمومها وأحزانها. وقد عاش جيلى كله هذه الفترة كما عشتها. فقد ولد جيلى أثناء الحرب العالمية الثانية، وتفتحت عيوننا على النكبة الكبرى: اغتصاب فلسطين وزرع جسم غريب فى جسد الأمة العربية والإسلامية، يستنزف طاقاتها ويمتص جهود أبنائها فى نزاع لا ينتهى، ولن ينتهى إلا بعودة الحق إلى أهله. ثم ما تلا ذلك من حروب شغلت الأمة عن نفسها، فتواضعت أحلامها، وقنعت بمكانة لا تليق بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، أكرمها الله، وشرفها بالإسلام وبكتابه وبنبيه صلى الله عليه وسلم، وببيته العتيق؛ بل وبكل رسالات السماء، فكل أنبياء الله ورسله أرسلوا إلى شعوب هذه المنطقة، وكل الحضارات من هنا نبتت وأورقت وأينعت وأزهرت وأثمرت، ثم ضاعت واضمحلت.

عشنا هذه الحياة وتفاعلنا مع أحداثها، وكثيرا ما يضيق الصدر ولا ينطلق اللسان. إذا، فلماذا لا يفرغ ما يحيك بالنفس، ويكدر الخاطر على الورق، شهادة على العصر، وعبرة وعظة للأجيال القادمة. وقد زكى هذا أننى كنت محبا لكتب السيرة وكتب التاريخ منذ وقت مبكر. ولكن كتابة السيرة الذاتية بكل تجاربها وتفاعلاتها أمر

جسيم. وهو يحتاج إلى وقت ومقدرة وبراعة وصياغة. خاصة وأن الأحداث لابد أن تتعرض للأشخاص. وأنا كمسلم لا أحب أن أخوض مع الخائضين، فكيف السبيل إلى أن تكتب دون أن تلمز أو تجرح. إن هذا يحتاج إلى قدرة هائلة على التجريد، وتناول الموضوعات والقضايا دون الأشخاص .

وهذه كلها أمور تحتاج إلى وقت طويل، وإلى صفاء ذهن، وفراغ بال. ثم إن السيرة الذاتية لابد أن تكون شهادة على العصر بكل ما فيه، وبكل تفاعلاته ومعنى ذلك أن مثل هذه السيرة الذاتية حينما تكتب من شأنها أن تتناول قضايا كثيرة، فصاحبها قضى حياته كلها فى التعليم الجامعى وفى مجال البحث والتأليف والترجمة وغيرها من الأعمال العلمية، وكانت له علاقة وثيقة مع عالم الكتاب والنشر. كما أنه عاش قضايا أمته وعصره، وهو حريص أشد الحرص على هذه الأمة يتفاعل مع أحداثها ويسعده ما يسعدها، ويسوءه ما يسوءها، ويحب لها الخير، ويكره أن يراها فى حالة الضعف والتشرذم الذين آلت إليهما. فالكتابة فى هذه الأمور جميعا أمر جسيم، وبحر لا ساحل له، ولامفر من التأجيل، ولكن إلى متى؟ علم ذلك كله عند ربى.

ما أتناوله هنا فى بعض صفحات الكتاب، إذا، ليس سيرة ذاتية، ولكن لمحات خاطفة تلقى شيئا من الضوء على التكوين الفكرى والثقافى للكاتب، وتبين أهم المنعطفات والمنحنيات الفكرية فى حياته، وذلك فى إيجاز شديد.

البداية فى إحدى قرى محافظة الغربية بدلتا مصر فى أسرة يحفل كبراؤها بالتعليم، والتعليم الأزهرى بصفة خاصة، كيف لا وقد خرّجت أحد المتفوقين والنابهين من علماء الأزهر الشريف، وهو خالى وصهرى مَدَّ الله فى عمره. وهو فضلا عن علمه ودينه وخلقه، شخصية فذة كياسة وعقلا وحصافة ورزانة ومواهب وملكات، وبعدا عن المظاهر، وعزوفا عن المناصب، أعطى حياته للتعليم، فكان قدوة حسنة لتلاميذه، ولنا جميعا. وقد تعلمت منه ولازلت أتعلم الكثير.

والتعليم فى القرية يبدأ بالكُتّاب، حيث يتعلم الطفل الكتابة والقراءة ويحفظ القرآن الكريم: كله أو بعضه، فإذا كان يريد الالتحاق بالأزهر استمر فى الكُتّاب، حتى تحين

سن الالتحاق بالأزهر، وهى اثنتا عشرة سنة. ولما كان صاحبنا سريع الحفظ، وكانت سنه صغيرة، فقد آثرت الأسرة أن توفر عليه سنوات من عمره، فألحقته بالمدرسة الإلزامية فى يناير ١٩٥٠، وما هى إلا شهور قليلة حتى اجتاز امتحان القبول للمدرسة الإبتدائية فى طنطا، والتحق بالسنة الثانية الإبتدائية، حيث كان التعليم الإبتدائى وقتها أربع سنوات. وكانت هذه هى النقلة الأولى فى حياته. وما هى إلا سنوات قليلة حتى حصل على الثانوية العامة سنة ١٩٥٨. وحان وقت الإلتحاق بالجامعة.

وهنا أقف وقفة، ففى خلال سنوات التعليم الابتدائى والثانوى أتيح لصاحبنا بيئة علمية دينية لغوية أدبية أسهمت فى التكوين الأول. كما أتيحت له قراءة كتب كثيرة جدا دينية وأدبية وتاريخية، كانت تكون فى ذلك الوقت القراءات الأساسية لجيله، مثل مجلة الرسالة التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات وهو إمام فى البلاغة. وكانت أعدادها موجودة فى منزله، وكتابات المنفلوطى والعقاد وطه حسين والحكيم، وغيرهم من رجال الفكر، وكتب كثيرة من التراث مثل الأغانى للأصفهانى والكامل فى الأدب للمبرد. كما أن حفظ جانب كبير من القرآن الكريم فى الصغر أسهم فى ضبط اللسان، وضبط مخارج الحروف، وسلامة اللغة، كل ذلك ساهم فى التكوين العلمى الأول.

والتعليم حينئذ كان لا يزال بخير، فالأساتذة متفرغون للعملية التعليمية، والدروس الخصوصية غير موجودة على الاطلاق، والأساتذة يبذلون قصارى جهدهم فى تعليم تلاميذهم، ويأخذون بأيدى الطلبة ويشجعونهم، وكان بعضهم موهوبين فى الشعر، فكانوا يقدحون الزناد، حتى يكتشفوا المواهب، وهكذا. وخلاصة القول إن الحياة كانت سهلة والبيئة فى البيت والمدرسة بيئة صالحة تساعد على التفوق والتحصيل والقراءة.

وكان المنحنى المهم الثانى عند دخول الجامعة، فقد كانت الرغبة الأولى عند دخول كلية الآداب جامعة القاهرة، هى قسم التاريخ، فصاحبنا يحب التاريخ وأيام العرب فى الإسلام، والفتوحات الإسلامية وأبطالها، وفوق هذا كله سيرة الرسول

المصطفى صلى الله عليه وسلم. والتاريخ هو مادة التخصص فى السنتين الثانية والثالثة الثانوية، وهو مادة التفوق فى شهادة الثانوية. ولكن الله سبحانه وتعالى اختار لى أن ألتحق بقسم الوثائق والمكتبات، الذى كان دراسة حديثة فى ذلك الوقت، والخيرة فيما اختار جل وعلا.

ومضيت فى دراستى بالقسم حتى وصلت إلى السنة الثالثة ١٩٦٠/١٩٦١. حيث درست فى تلك السنة ـ ضمن ما درست ـ التصنيف، والمراجع العربية. وأحببت المقررين، خاصة وأن أستاذنا الدكتور محمدكفافى رحمه الله، كان أستاذاً مثقفاً بالمعنى الواسع، وكانت علوم المكتبات هى الدراسة الثانية له، أما التخصص الأول، فقد كان الأدب الفارسى، وهو مرتبط بطبيعة الحال بالأدب العربى والثقافة العربية فى العصور الأولى. ولذلك طلب منا فى تلك السنة، إلى جانب دراسة المراجع، أن ندرس كتاب أحمد أمين: ضحى الإسلام، وهو جزء من مجموعة تؤرخ للحياة العلمية عند المسلمين منذ بزوغ الحركة العلمية عندهم حتى قمة نضجها فى القرن الرابع. وهكذا أتاح لى كتاب ضحى الإسلام، ثم قراءة السلسلة كلها فيما بعد: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، أتاح لى أن أطلع وبصورة موسعة على الحركة العلمية عند المسلمين، وتابعت ذلك فيما بعد بدراسة الكتب الأخرى فى الموضوع، وتلاقى هذا وذاك مع حب أصيل للموضوعات العربية والإسلامية وأسهم فى تكوينى العلمى والفكرى فيما بعد، خاصة مع اشتراكى فى تحقيق كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم فيما بعد وهو من أهم كتب التراث.

أما فى التصنيف فقد كان أستاذنا متأثراً بأستاذه فى لندن، برويك سايرز، وهو أحد أعلام المدرسة التقليدية فى التصنيف، التى تمثل المرحلة الأولى من مراحل البحث والتفكير فيه، وهو أستاذ للكثيرين فى بريطانيا وخارجها، حيث درّس الموضوع فى مدرسة المكتبات بجامعة لندن طيلة أربعين سنة. ومن تلاميذه رانجاناثان وكل أعضاء جماعة البحث فى التصنيف فى بريطانيا الذين أثروا مجال التصنيف واسترجاع المعلومات على مدى خمسين سنة. وتنتهى هذه المرحلة بتخرجى سنة ١٩٦٢،

والعمل بدار الكتب المصرية، حيث بدأت مرحلة التخصص والبحث والتأليف والترجمة، وغيرها، وهى مرحلة تتداخل فيها الخبرات المختلفة بالعمل العلمى ويصعب فصلهما. ولذلك أتوقف الآن عن ذلك الحديث، لأتابعه فى الفصل الأول.

أما سبب الحرص على إنجاز الأعمال التى طال انتظارها، ومنها العمل الذى بين أيدينا، فهناك أسباب كثيرة منها: أنه قد مضى من العمر أكثره، والأعمار بين يدى الله سبحانه وتعالى. وأخشى أن تخترمنى الشواغل أو يدركنى المنون قبل أن أنجز تلك الأعمال، وهى كثيرة. ففى خطتى التى تنتقل من عام إلى عام: هذا العمل الشامل، الذى شرعت فيه الآن، وفيها كتاب شامل عن التاريخ الأدبى للتراث العربى، وفيها استئناف العمل فى الخطة العربية للتصنيف، واستئناف العمل فى الببليوجرافيا الموضوعية لعلوم الدين الإسلامى، وهى أعمال لم يبارحنى التفكير فيها لحظة من عمرى ويسبب لى ذلك أرقاً شديداً وهماً عظيماً، لإيمانى بأهميتها للأمة ولذلك فلأحاول فيما تبقى من عمر أن أنقذ ما يمكن إنقاده، فإن كتب الله لى إكمال هذه الأعمال كلها أو بعضها فبها ونعمت، وإن أدركنى الأجل المحتوم الذى لا راد له، أكون تركت بذوراً وبدايات لعلها تجد تربة صالحة، ولعل الله أن يقيض لها من الأجيال القادمة من يرعاها ويتعهدها ويستكملها، وما ذلك على الله بعزيز؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

صدق الله العظيم

سورة إبراهيم

ولعل ما يقدر الله لى أن يُكتب ويتسع له العمر أن يكون وصايا للأجيال القادمة.

ومن الأسباب كذلك الرغبة فى نشر العلم: من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من النار. وتلاميذ الإنسان الذين يدرس لهم المرء مهما زاد عددهم فهم قليل. ولذلك فمن الضرورى أن تسجل الأفكار وأن تظهر الأعمال للجمهور الأوسع من التلاميذ والقراء والزملاء سواء منهم الموجودون حاليا أو الذين يأتون بعد.

ومنها أن الأمة الآن أحوج إلى جهود أبنائها وإلى عملهم أكثر من أى وقت مضى. فقد تكالبت عليها الأمم، وتضافرت العوامل لإضعافها: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره. ولذلك فيجب أن نعى هذا جيدا وندرك أن الأمة ترقى بجهد أبنائها وبتوحد إرادتهم وعزيمتهم وبتعاونهم على البر والتقوى. لقد بنى أجدادنا حضارتهم بالعلم والإيمان، وما أحرانا أن نفعل مثلما فعلوا:

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

ومنها أننى وجدت الناس، ومنهم الأساتذة الجامعيون، يتكالبون على الأعراض ويزجون بأنفسهم فى سفاسف الأمور، فحمدت الله سبحانه وتعالى أن عافانى مما ابتلى به غيرى، وأردت أن أعكف على الجواهر لا الأعراض، وعلى العلم الذى ينتفع به، لأن من أول من يقذف به فى النار عالم يتعلم ليقال علمت، فقد قيل ثم يقذف به فى النار، ورجل أنفق ليقال كريم، فقد قيل ثم يقذف به فى النار، ورجل قاتل ليقال شجاع، فقد قيل، ثم يقذف به فى النار. هؤلاء طلبوا العلم للدنيا فأخذوا ثوابهم فيها ونالوا حظهم منها وليس لهم فى الآخرة من خلاق.

﴿ ومن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الأخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾.

علماؤنا يجب أن يجعلوا أعمالهم خالصة لله لا لطلب دنيا والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. نحن لسنا مثل علماء الغرب نفصل الدين عن الدنيا. فالعلم دين وخلق وفضيلة ومبادئ وسلوك. ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة:

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾.

وكان صلى الله عليه وسلم أعظم معلم لأفضل تلاميذ وكان قرنهم خير القرون، وذلك لتأسيهم برسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدائهم به وتمسكهم بأهداب الدين والخلق والفضيلة.

والعلماء هم ورثة الأنبياء، ومكانتهم فى الإسلام مكانة عالية، ومنزلتهم منزلة سامية. ولذلك فيجب أن يترفعوا عن الدنايا وأن يكونوا قدوة لتلاميذهم، لأن الطالب حينما يرى أستاذه يقول مالا يفعل ويفعل ما لا يقول تنهار أمامه القيم، ويظن أن أستاذه هو النموذج وأن أسلوب أستاذه ـ وهو الأسلوب المعوج ـ هو سبيل النجاح فى الحياة، فيصبح المجتمع الجامعى غابة، مثله مثل أى مكان. الأستاذ قدوة ومعلم وعطاء ومرب وموجه، فكيف يفعل ذلك من لا خلاق له:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾.

وشاعرنا يقول:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلاَّ لنفسك كان ذا التعليم

فهذه رسالة إلى إخوانى المربين أن يراقبوا الله عز وجل فيما يقولون وما يفعلون وأن يكونوا أهلا للأمانة، الأمانة الكبرى التى عرضها الله سبحانه وتعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وقد تواترت الأنباء فى الصحف والمجلات عن الأمانة العلمية وعن سلوكيات تتنافى مع الأمانة العلمية، وسلوكيات أخرى تتنافى مع الأخلاق الفاضلة، وأنا عن الأمانة العظمى أتحدث، فلا أمان لمن لا دين له. الأخلاق لا تتجزأ، لا يمكن أن أتصور أن أستاذًا يكذب ويزور ويلوى الحقائق ويتآمر على زملائه، بل على أساتذته، لا يمكن أن يكون لهذا الأستاذ أمانة لا علمية ولاخلقية لأن هذه جزء من تلك، وفاقد الشيء لا يعطيه، ثم يتحدثون عن القيم العلمية وينتقدون غيرهم

والأخلاق والعلم منهم براء. وهذا يجعلنا لا نتساءل عن الأمانة العلمية، بل عن أهلية الأستاذ للتعليم أصلاً:

يا لائم الناس قد أصبحت متهما

إذ عبت منهم أموراً صرت تأتيها

إن من شأن انتشار القيم المقلوبة التى يمتلكها هؤلاء الذين يحسبون على العلم وأهله أن ننتج أجيالاً هزيلة ضعيفة لا مبادئ عندها ولا أخلاق، لأنه لو فسدت الأخلاق فلا تنتظر خيراً:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولو تركت العنان لخواطرى وشجونى فلن أتوقف. ولهذا أكتفى بالإشارة ولعل الله سبحانه أن يغير حالنا إلى الأحسن والأفضل لأن التربية والتعليم هما مفتاح الإصلاح.

مقدمات العلوم عند المسلمين

ولا أريد أن أختم هذه المقدمة دون أن أشير إلى مقدمات العلوم عند المسلمين، حتى أبين كما هى عادتى جذور الأفكار فى تراثنا الإسلامى الذى لم ينصفه أهله، ولا أعداؤه.

هذه المقدمات ليست من ابتكار العصر الحديث، بل كان المسلمون أول من عنى بوضعها، ووصلت عندهم إلى درجة عالية من الرقى لا نجدها عند علماء الغرب.

وللمقدمة فى اصطلاح المتقدمين معنيان:

فهى إما مقدمة علم

أو مقدمة كتاب

ويقصدون بالأولى، أى مقدمة العلم، ما يتوقف عليه الشروع فى العلم من المعلومات؛ أى مدخل إلى العلم.

ويقصدون بالمعنى الثانى: طائفة من الكتاب تقدمت أمام المقصود لارتباط له بها أو الانتفاع بها فيه. ويلاحظ هنا استخدام كلمة المقصود، وفى بعض المصادر تستخدم كلمة المقصد (إرشاد القاصد إلى أى أسنى المقاصد) وهى تساوى ما يطلق عليه فى الاصطلاح الحديث كلمة Core والتى حار الكثيرون فى وجود مقابل عربى مناسب لها، مع أن المصطلح العربى أسبق وأدق وأفضل، وهو بين أيدينا، وهو مقصد.

وقد أطلق على كتب مقدمات العلوم أسماء أخرى كذلك منها: موضوعات العلوم، ومبادئ العلوم. والاسم الأول: موضوعات العلوم، أخذته من عنوان كتاب: مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم. وهو يعبر بدقة عن هذا النوع من المؤلفات. أما التسمية الثانية فقد وجدتها فى مؤلفات علماء الأزهر الشريف فى العصر الحديث، وهى تسير على النهج القديم.

لقد كان أول كتاب فى سلسلة موضوعات العلوم هو كتاب: إحصاء العلوم للفارابى: أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان (ت ٣٣٩هـ). وهو ينسب إلى فاراب بلدة فى بلاد الترك. وقد عرف الفارابى بالمعلم الثانى، حيث أنه من أكبر شراح أرسطو الذى يعرف فى الغرب بالمعلم الأول، فهو الذى نقل مؤلفاته إلى العربية وشرحها. وهو واحد من فلاسفة الإسلام، مثله مثل ابن سينا وابن رشد وغيرهما. وفلسفتهم لا تمثل الفكر الإسلامى الحق. ولكن هذا لا يعنينا الآن، وإنما الذى يعنينا فى هذا السياق محاولته لوضع مقدمات العلوم فى كتابه السالف الذكر. كذلك لن نتناول علاقة هذا الكتاب وغيره من كتب موضوعات العلوم ـ بالتصنيف عند المسلمين فليس هذا مكانه الآن، يقول الفارابى فى مقدمته:

«قصدنا فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علما علما، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء ماله منها أجزاء، وجمل ما فى كل واحد من أجزائه...

«وينتفع بما فى هذا الكتاب لأن الإنسان إذا أراد أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه، علم على ماذا يقدم وفى ماذا ينظر، وأى شى سيفيد بنظره، وما غناء ذلك، وأى فضيلة تنال به، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمىً وغرر».

«وبهذا الكتاب يقدر الإنسان على أن يقايس بين العلوم، فيعلم أيها أفضل وأيها أنفع وأيها أتقن وأوثق وأقوى، وأيها أوهن وأوهى وأضعف».

«وينتفع به أيضاً فى تكشيف من ادعى البصر بعلم من هذه العلوم، ولم يكن كذلك، فإنه إذا طولب بالإخبار عن حملة ما فيه وبإحصاء أجزائه وبجمل ما فى كل جزء منه فلم يضطلع به، تبين كذب دعواه وتكشف تمويه».

«وبه يتبين أيضا فيمن يحسن علما منها هى يحسن جميعه أو بعض أجزائه وكم مقدار ما يحسنه».

«وينتفع به المتأدب المتفنن الذى قصده أن يشدو جمل ما فى كل علم، ومن أحب أن يتشبه بأهل العلم ليظن أنه منهم»[1].

وقد نقلت هذه الفقرات الطويلة نسبيا لكى أوضح هدف الفارابى من تأليف كتابه كما عبر عن ذلك هو نفسه. ومن ذلك يتضح أنه هدف تعليمى: رسم معالم العلوم المختلفة، ليبين للطالب الذى يريد دراستها فائدة كل علم، وأجزاءه ومباحثه، والعلاقة بين العلم وغيره من العلوم، ومرتبة العلم من حيث القيمة ومرتبته عند التحصيل، حتى يترقى من علم إلى علم، وكل هذه بطبيعة الحال أمور تعليمية.

وقد جاءت كتب أخرى بعد الفارابى، فألف السنجارى الأكفانى فى القرن الثامن كتاب: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ثم كتب ابن خلدون الباب السادس من مقدمته: «فى أصناف العلوم الواقعة فى العمران لهذا العهد». وكتب السيوطى فى القرن التاسع كتابيه: النقاية المتضمنة خلاصة أربعة عشر علما، وكتاب الدراية لقراء النقاية، وهو يزيد فيه على العلوم التى تناولها فى فى الكتاب الأول: النقاية.

يأتى بعد ذلك أهم كتب تلك السلسلة وهو كتاب طاشكبرى زادة، الذى ألفه عام ٩٤٨هـ (ت ٩٦٨هـ) ، وهو كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى

(١) الفارابى: أبو النصر محمد بن محمد بن أوزلغ. احصاء العلوم، ١٩٤٧. ولاحظ استعماله للفظ المقاصد جمع مقصد التى أشرنا إلينا آنفا، وغرضه واضح.

موضوعات العلوم. وقد أعطى كتابه هذه السلسلة اسمها، وهو: موضوعات العلوم، كما سبق أن ذكرت[1].

وإذا كان صاحب مفتاح السعادة قد أطلق على كتابه: موضوعات العلوم، والذى يمكن كما ذكرت آنفا أن يكون اسما لهذا النوع من المؤلفات، فإن علماء الأزهر الشريف فى عصر أحدث قد أطلقوا على هذا النوع من المؤلفات: مبادئ العلوم، وألفوا فيه عدداً كبيراً من المؤلفات. وهى كتب حديثة نسبيا من حيث الزمن إلا أنها تسير على النمط القديم فى التأليف. وهى مفيدة جدا فى معرفة المنهج التعليمى عند المسلمين، وفى معرفة المقدمات التى يجب أن يبدأ بها المؤلف أو القارئ.

المبادئ عندهم هى تعاريف الموضوعات. وهم يعرفون العلم، والموضوع، والمسائل،والغاية، والغرض، والفائدة، وهدفهم من ذلك تعليمى أيضاً.

ومن تقاليد المتقدمين كذلك أنهم كانوا يذكرون فى أوائل كتبهم ما يسمونه: الرؤوس الثمانية، وهى مقدمات الشروع فى العلم، وهى الغرض، والمنفعة، والسمة (الاسم)، والمؤلف، ومن أى علم هو ليطلب ما يليق به، وفى أى مرتبة هو ليتقدم عما يجب، ويتأخر عما يجب، والقسمة (أقسامه) ليطلب فى كل باب ما يليق به، والأنحاء التعليمية؛ وهى: التكثير من فوق (التقسيم)، والتحليل وهو عكسه، والتحديد أى فعل الحدود (التعاريف)، والبرهان أى الطريق إلى الوقوف على الحق والعمل به. وقد شرحوا المقصود بهذا كله.

وهناك أمور كثيرة يمكن دراستها والخروج بها من هذه الكتب وهى دراسة شيقة ومفيدة، ولكن حتى لا نخرج عن حدود عملنا هذا أركز على أمرين:

١ ـ علاقة هذا النوع من المؤلفات ـ مقدمات أو موضوعات أو مبادئ العلوم ـ بما نحن بصدده الآن من دراسة مقدمات تنظيم المعرفة، وما الأمور التى يجب أن يركز المؤلف عليها أو بمعنى آخر يجب أن يتناولها عند الشروع فى التأليف. وهذه العلاقة واضحة جلية.

٢. علاقة هذه الأعمال بالتصنيف بصفة عامة وبالتصنيف عند المسلمين بصفة

(١) تناولت هذا الموضوع بالدراسة المفصلة فى مقدمة الكتاب فلا داعى للإطالة هنا.

خاصة. وهذا الموضوع أرجىء تناوله إلى الجزء الخاص بالتصنيف عند المسلمين. وقد أعود إلى العلاقة بين التعريف والتصنيف عند تناول تعريفات التصنيف.

وقبل أن أترك هذه الصفحات الموجزة عن مقدمات العلوم عند المسلمين لا يفوتنى أن أشير إلى أمر مهم جدا وجذوره أيضا فى كتابات المسلمين، وهو أن الطالب للعلم والمعرفة بعد أن يقرأ التعاريف والمسائل والرؤوس التى أشرنا إليها ويشرع فى التحصيل فسوف يجد أمامه فى كل علم من العلوم ثلاثة أنواع من الكتب:

١. **الكتب البسيطة**: وهى التى تقابل عندنا الآن المقدمات أو المداخل، وهى كتب أولية Elementary، وتسمى فى العصر الحديث Introductions ، وأحيانا تسمى Elements of، الخ. وهى كتب شاملة فى الموضوع.

٢. **الكتب الوسيطة**: وهى الكتب التى تعالج الموضوعات بصورة أوفى من كتب المقدمات، وهى وسط بين المقدمات introductions والكتب المتقدمة advanced. ويطلق على هذا النوع فى العصر الحديث Intermediate وهى كتب شاملة أيضا وتسمى كثيرا: Manuals.

٣. **الكتب المبسوطة**: وهى الكتب المفصلة، أو المتقدمة، وهى أوفى من الكتب الوسيطة، ولكنها تميل إلى معالجة جانب واحد من الموضوع أو عدة جوانب ولا تكون شاملة لكل جوانب الموضوع فى الأعم الأغلب. وتسمى فى العصر الحديث Advanced.

هذا النوع الثالث وإن كان لا يعالج موضوعات العلم كافة فى العصر الحديث إلا أنه فى التراث الإسلامى كان يعالج فروع علم من العلوم كافة. وربما كان ذلك لأن المعرفة تخصصت فى العصر الحديث وأصبح من الصعب أن يعالج كتاب واحد بالتفصيل فروع علم من العلوم.

بعد هذه المقدمة المختصرة عن مقدمات العلوم، نذكر أن المؤلفات العربية فى العصر الحديث، قد عرفت الأنواع الثلاثة من المؤلفات فى العلوم المختلفة. وقد استخدمت

كلمة مقدمة أو مدخل للكتب البسيطة، وهى مداخل أو مقدمات العلوم. كما استخدم مصطلح: البسيط، ولكن بدرجة أقل من مقدمة أو مدخل، كذلك استخدم لفظ الرائد فى العربية: Primer فى الإنجليزية. كذلك استخدام مصطلح الموجز والوجيز.

أما مصطلح: الوسيط، فقد استخدم وخاصة فى كتب القانون. وقد استخدم مصطلح: المبسوط فى التراث الإسلامى بكثرة، ومن أشهر الكتب المبسوطة: المبسوط للسرخسى فى الفقه الحنفى. والكتب فى مفتاح السعادة تقسم على هذه الأنواع الثلاثة. فتحت كل علم من العلوم، يبدأ بذكر الكتب البسيطة، ثم الكتب الوسيطة، ثم المبسوطة، وأحيانا لا يذكرها كذلك، وإنما يقول: ومن المصنفات... وفى معظم الأحيان لا يوجد لفظ البسيط، الخ، فى العنوان، وإنما هى سمة للكتاب.

والسلسلة التى نقدم لها الآن هى عمل شامل يعالج كل جوانب موضوع تنظيم المعرفة، وهى ليست عملاً واحداً وإنما هى سلسلة تتألف من عدة أعمال يخصص كل منها لموضوع متفرد. الكتاب الأول فيها مدخل عام وقد تناولت ذلك فى ختام الفصل الأول: التمهيد.

وأختم هذه المقدمة بحديثين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل فيهما عبرة لأولى الألباب:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وفى رواية: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من حالت شفاعته دون حَدٍّ من حدود الله فقد ضاد الله، عز وجل، ومن

خاصم فى باطل، وهو يعلم، لم يزل فى سخط الله حتى ينزع، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال، حتى يخرج مما قال.

صدق الرسول المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم

حالت: منعت؛ شفاعة: توسل من أجل أمر؛ حد: عقوبة، ضاد: عادى، سخط: غضب، ينزع: يدع ما هو فيه؛ ردغة: طين ووحل، وردغة الخبال: النار وما فيها؛ يخرج مما قال: يتخلص منه.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد.